

اللغة العربية وعلوم العصر

الكنوة عائنة عبدالرحمن

موسكو العربية ، وجدتها جميعا من صميم علوم العصر
التي وضعت لتكون مرجعا للدارسين في الجامعات
والمراكز العالية للتدريب الفنى .

واوشكت أن اطرح هذه الكتب جانباً ، أو
اتخف من عبئها على خزانة كبرى ، بالتماس من يهتم
ببوادها التي لاشأن لى بها ولا اتصال .

غير انى ما لبثت ان ذكرت ما اشتغل به من
تضايى حياتنا اللغوية ، فأقبلت على هذه المعربات
الواردة من موسكو ، احاول ان استبين الى اى مدى
طوع العلماء السوفييت لغتنا العربية ، لأحدث ما
وصلوا اليه في المجال العلمى والصناعى .

بعد أن تحدثت فى مادتها العلمية الى عدد من
صفوة علماء الاختصاص وفى مقدمتهم عالمنا الحكيم
الدكتور محمد كامل حسين والدكتور اسامة امين
الخولى وكيل هندسة القاهرة .

وكانت مفاجأة لى ، ان اقرا لغتى فى هذه
العلوم العصرية ، سليمة واضحة ، دقيقة طبيعة

« مازال جيلنا منذ وعى ، يسمع دعاوى عن
عجز العربية عن اداء العلوم الحديثة ، حتى كدنا ننسى
ماضيها العلمى فى عصر الحضارة الاسلامية وفجر
العصر الحديث » .

« ومنذ عزلت عن الميدان العلمى تدريسا وتأليفاً،
صارت دعوى عجزها من المسلمات البديهية التى
لا تحتل الجدل ، ولم تفلح جهود نصف قرن فى رد
اعتبارها العلمى اليها حتى عربت « موسكو » علوم
العصر : فهل كنا نحرث فى الماء ؟ ! »

فى صيف عامنا هذا ، تلقيت رسالة من مطبوعات
موسكو العربية ، حسبها اول الامر بما ينشره
« المجمع العلمى للاتحاد السوفيتى » من ذخائر تراث
لنا ، يرى فيه رواد الفضاء اكفان موتى وأحافير
اثرية من عصور غبرت ، ولايسمح بأن يجعل من
اهتمامه بها موضوع جدل أو مناقشة ، فمن قد
يتصورون أن جهد المجمع العلمى يجب أن يوفر كله
للسباق الظاهر الى غزو القمر .

فلما نظرت فى كتب هذه الرسالة من مطبوعات

ميسرة ، لاتتوقف ولا تتعثر .

وإن أمضى في قراءة المواد العلمية التي انعزلت عنها طويلا ، مأخوذة بلهفة من يكتشف فجأة أن أسراراً من لفته غابت عنه .

بعد كل ما ضج به افقنا العربى المعاصر ، من دعاوى طنانة رنانة ، تؤكد عجز لغتنا عن أداء علوم العصر ، وتبرر عذر جامعاتنا في الاصرار على تدريسها بلغة اجنبية .

وتنذرنا بأن نظل حيث نحن ، متخلفين عن العصر علميا وصناعيا ، ان نحن جازفنا بتعريب العلوم استجابة لعاطفة قومية ساذجة ، لا مجال لها في عصر العلم !

فنبلغ علمى ، ان جيلنا مازال منذ وعى ، يسمع هذه الدعوى تدوى كالطبول . فأما الذين جهلوا منا تاريخ الامة فايقنوا انها حق لاريب فيه ، وأما الذين اتصلوا بماضى الامة ودرسوا تراثها العلمى ، فقد وقفوا في حيرة من امر هذه العربية : من أين أصابها العقم وهى التى استطاعت منذ عشرة قرون ، وأكثر ، ان تستوعب كل التراث الفلسفى والعلمى للأمم القديمة ، وان تنقل الى المكتبة العربية ذخائر الفكر والعلم والثقافة لأعرق الحضارات التى عرفها التاريخ ؟

وكيف يعيها اليوم ان تنقل علومها كان للعلماء العرب ، في عصر الحضارة الاسلامية ، مجد الزيادة فيها وتحريرها من المنهج التأملى الفلسفى الذى كان يسيطر على العقلية اليونانية في عصر قيادتها للفكر الانسانى فيردها الى غيبيات مما وراء الطبيعة ، مترفعا او عاجزا عن التجربة العلمية بمنهجها الاستقرائى الدقيق واجهزتها المعملية ؟

تاريخ :

ومن وراء ثلاثة عشر قرنا ، مضيت اسابير التاريخ العلمى لامتى ، وأنا في أخذة العجب لهذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية في موسكو !

من القرن الاول الهجرى — السابع الميلادى — بدأ اتصال العربية بالتراث العلمى القديم ، في حركة

ترجمة لكتب في النجوم ، والفلك ، والطب والكيمياء ، برعاية أمير من البيت الاموى ، هو « خالد بن يزيد بن معاوية » الملقب بعالم بنى أمية .

على ان الترجمة لم تلبث ان أخذت في العصر العباسى الاول ، وضعا رسميا تدخل به في سياسة الدولة وتعتمد على رصيد سخرى من الخزانة العامة ، وقد استوعبت الحركة في عصر الرشيد وولده المأمون ، ذخائر التراث الفكرى والعلمى في الفلسفة والرياضيات والفلك والطبيعة ، لليونان والفرس والهند ومصر .

ثم ما لبثت العقلية الاسلامية ان هضمت ذلك التراث وتمثلته فأعطته روحا جديدة على نحو ما فعلت مدرسة الاسكندرية بالفكر اليونانى حين هاجر اليها .

وتلقى معجم العربية رصيذا ضخما من المصطلحات العلمية المعربة ، الى جانب الالفاظ العربية التى امكن تطويعها للمصطلح العلمى .. ولا يذكر التاريخ ان حركة احياء التراث العلمى قد انتظرت طويلا ريثما يستقر رأى المختصين على امكان نقل العلوم الى العربية ، أو صدور فتوى من رجال الدين في جواز تعريبها ..

وفي طمانينة واثقة من تأييد العقيدة الاسلامية للعلم وتجديدها للعقل انطلق علماء الدولة الاسلامية ينظرون في الظواهر الكونية بعقلية متحررة من الخصومة العتيقة المبررة بين العلم والدين ، فلم يمتزج قرن على تعريب التراث القديم حتى قدم هؤلاء العلماء جديدا أصيلا من العلوم الطبيعية والرياضية ، ودخلوا التاريخ العلمى روادا لافاق لم يستشرف لها من قبلهم .

ومن القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى — بدأت المكتبة العربية تتلقى اوليات الكتب العلمية التى فيها اولئك الرواد ، فاستطاعت لغتنا ان تؤدى كل مصطلحات العلوم الرياضية في الحساب والجبر والهندسة والفلك وأن تطوع المصطلحات العلمية في الطب والصيدلة والكيمياء والطبيعة والنبات والحيوان والجغرافيا ، كما تلقت المراصد الفلكية والمعامل التجريبية ، الاجهزة العلمية التى اخترعها علماءنا الذين تم على أيديهم نقل العلوم الطبيعية والفلكية الى مجال البحث العلمى التجريبى ، وكانت في التراث

البابلى مختلطة بالسحر ، وفي المدارس اليونانية داخلية
في نطاق البحوث العقلية والدراسات النظرية
والفلسفة التأملية ..

وكل هذا مما لا يجله دارسو التاريخ العربى
والحضارة الاسلامية ، وقد كان جديرا بأن يصل الى
المنتبين منا الى الثقافة الغربية ، عن طريق المؤرخين
الغربيين للحضارة والعلم . وهم قد شهدوا بأن المرحلة
الرائدة لعصر العلم الحديث تمت على ايدي علمائنا في
العصر التياى للحضارة الاسلامية ، واعترفوا بأن
حركة الاحياء (الرنيسانس) التى بدأت بها النهضة
الحديثة في اوربا ، انما قامت أساسا على ما انتقل الى
الغرب الاوربى من تراثنا العلمى الحضارى ، على
المعابر التاريخية الكبرى في العصر الوسيط : الاندلس
وصقلية والدردينيل ..

كما شهدوا بأن علوم الطب والرياضيات والفلك
والكيمياء ، سارت في الغرب الحديث على الدروب التى
عندها رواد هذه العلوم من اعلام الدولة الاسلامية ،
وقد ثبت تاريخيا ان اكثر مؤلفاتهم العلمية والفلسفية
كانت تدرس في جامعات اوربية الى القرن السابع عشر ،
في اصولها العربية او مترجماتها اللاتينية التى تنابعت
من القرن الثالث عشر الميلادى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يقرر تاريخ العلم
ان رسائل « جابر بن حيان » (ت 198 هـ) التى
النفا في الكيمياء باللغة العربية في القرن الثانى الهجرى ،
عرفتها اوربا في نصوصها العربية وفي ترجمات لاتينية
ثم المانية (هوليارد Holmyard — 1678 م) ،
ثم ترجمها الى الانجليزية (ريتشارد راسل R. Russel)
في طبعة لندن (1928) .

وكتاب حساب الجبر والمقابلة الذى الفه « ابو
عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى » (ت 236 هـ)
في اوائل القرن الثالث الهجرى ، نقله « جيرار الكريمنى »
الى اللاتينية في القرن السادس عشر الميلادى ، ثم
نشر « روزن F. Rosen » نصه العربى مع ترجمة
انجليزية في طبعة لندن 1850 .

ونشر (ناجل A. Nagel) ترجمة الابواب
الخاصة منه بالحساب كما وضع (جاندز S. Gandz)
كتابا عن مصادر جبر الخوارزمى .

وكتاب « الحاوى لصناعة الطب » الذى الفه
طبيبنا « ابو بكر الرازى » (ت 311 هـ) من علماء
القرن الثانى واوائل الثالث الهجرى ، تحمل اقدم
نسخة عربية منه في اوربا ، تاريخ سنة 1282
بمخطوطات المكتبة الوطنية في باريس (الناسيونال)
وترجمه الى اللاتينية « جيرار الكريمنى » عام 1486م
ونص (رينو) في ترجمته الفرنسية لكتاب ادوار براون
« الطب العربى » على ان كتب الرازى التى ترجمت
الى اللاتينية بلغت خمسة وعشرين جزءا .

والجزء الخاص منه بالتشريح ، والمعروف
بالمنصورى — اهداه الى المنصور بن اسحاق والى
خراسان — نشرت ترجمته في طبعة ميلانو 1481م ،
ثم نشره (كونينج P. Koning) — مع اجزاء من
كتاب « الكناش الملكى » لعلى بن عباس والقانون لابن
سينا — في طبعة ليدن سنة 1903 ، وترجمة (برونر
W. Bronner) الى الالمانية في طبعة برلين 1900 .

ورسالته في الجدرى والحصبة ترجمها (فاللا
E. Valla) الى اللاتينية في طبعة البندقية عام
1498م ، و (جاك جوبيل J. Goupyl) الى اليونانية
في عام 1548 وترجمه الى الفرنسية (جاك بوليه
J. Poulet) في طبعة باريس 1866 ، و (لوكير ،
ولينوار Leclere, Lenoir) في طبعة
باريس سنة 1866 .

ونشر (جرينهل W. Greenhill) نصه العربى
مع ترجمة انجليزية في طبعة لندن 1848 ..
كما نشر النص العربى مع ترجمة فرنسية عام
1896 ..

وترجمه (كارل اوبتز K. Opitz) الى الالمانية
في طبعة ليبزج 1911 .

وكتاب على بن العباس (ت 383 هـ) — « كامل
الصناعة الطبية » المعروف بالكناش الملكى الذى الفه
بالعربية في القرن الرابع الهجرى ، ترجم الى اللاتينية
في طبعة البندقية سنة 1492 ، ثم في طبعة
ليدن سنة 1523 .

وبصريات الحسن بن الهيثم (ت 422 هـ) التى
الفها بالعربية في كتاب من سبعة اجزاء بعنوان (المناظر)
عرف مع غيره من مؤلفات ابن الهيثم في ترجمات لاتينية

بالمصنوع الوسطى ، ونشر (ريزنر Risner)
ترجمة كاملة له بأجزائه السبعة عام 1573 ، كما
نشر (كارل شوي K. Schoy) بالألمانية عام 1920
رسالة ابن الهيثم في استخراج القطب .

وكتاب « الادوية البسيطة » للطبيب الاندلسي
(ابن الوند) نشرت ترجماته اللاتينية نحو خمسين
مرة !

وكتاب « التصريف » للطبيب الاندلسي « ابي
القاسم الزهراوى » (ت 411 هـ) ترجم الى
اللاتينية في طبعة البندقية سنة 1497 ثم في طبعة
ستراسبورج سنة 1532 ، وبال 1541 م . والجزء
الخاص منه بالجراحة كان اساسا للتعليم الجراحى
بأوروبا لبضعة قرون . وقد نشر نصه العربى مع
ترجمة لاتينية في طبعة اكسفورد سنة 1778 م .

وقتانون (الشيخ الرئيس ابن سينا) ، ابي
على الحسين (ت 428 هـ) في الطب المؤلف بالعربية
في اوائل القرن الخامس الهجرى ، من خمسة
اجزاء ، ترجمه الى اللاتينية (جيرار الكريمونى)
ونشر في طبعات ميلانو 1473 ، و (بادوا Padoa)
1476 ، والبندقية 1482 . ثم اعيد طبعه حتى
بلغت طبعاته العشرين في القرنين الخامس عشر
والسادس عشر ، ونشر نصه العربى في روما سنة
1593 م .

وكتاب « الشريف الادريسي » - (ت 457 هـ)
« نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » الذى
الفه في صقلية ، في القرن الخامس الهجرى ، كان
المرجع الجغرافى الاول في عصر النهضة ، ونشرت
اجزاء منه في ليدن سنة 1866 م ، وفي روما مع
ترجمة ايطالية سنة 1883 ، وفي مدريد سنة
1901 . وترجمة (دى جوييه ودوتز
M. D. Joeje, R. Doz) الى الألمانية في طبعة

(اوبسالا) سنة 1894 م .

ومفردات (ابن البيطار) - (ت 646 هـ)
في الادوية ، التى ألفها بالعربية في كتابه « الجامع
في الادوية المفردة » في اوائل القرن السابع الهجرى
عرفت في نصها العربى بأوروبا في عصر النهضة ،
وترجمت الى اللاتينية قبل ان ينقلها (فنون
زوننهايمر) الى الألمانية في طبعة (شتوتجارت)
(1840 - 1842 م) ، و (لوكير) الى الفرنسية
في طبعة باريس (1877 - 1883 م) .

ثم لا امضى في سرد ما احيا الغرب من ذخائر
تراثنا العلمى (1) الذى صد عنها المتفرنجين من
مبتغينا ، كونها من حفريات ماضى غير ، ومخلفات
موتى افناهم البلى .

في الوقت الذى يشهد فيه مؤرخو الحضارة
الغربيون ، من امثال « سارتون » ، وويل ديورانت ،
والدوميلي ، ونلليو ، وامارى ، وآدم ميتز ،
ولوبون ، ودى سور ، واوثيرى ، وبراون ،
وكراتشكوفسكى ، وتوينبى ، وسيجريد هونكه ..
ان هذه الذخائر في اصولها العربية وترجماتها
اللاتينية ، هى التى اضاءت للغرب مسراه من
ظلمات المصنوع الوسطى الى عصر النهضة والعلم
الحديث .

وادع تاريخ العصر الوسيط ، فأرى لفتنا
العربية قد سارت التقدم العلمى فاستطاعت في فجر
العصر الحديث عندنا ، ان تأخذ دورها في مدارس
العلوم العسكرية والهندسية والطبية والزراعية ، في
اوائل القرن الماضى . وحين اقتضت ظروف المرحلة
الاستعمارية بأساتذة من علماء فرنسا ، (كلوت بك)
الطبيب ، والدكتور (فيجرى) عالم النبات ، كان

(1) من اقرب المراجع لهذا الموضوع كتاب « العلم عند العرب » ، للدوميلي ترجمة د . عبد الحليم
النجار ، و د . محمد يوسف موسى ط دار العلم بالقاهرة 1962 ، وتجد في الفصل الاول من كتاب
الدكتور توفيق الطويل « العرب والعلم في عصر الاسلام الذهبى » - ط النهضة العربية 1968 ،
دراسة وافية لهذا الموضوع مع فهرس لمصادر البحث ومراجعته . وراجع محاضرة تراثنا بين شرق
وغرب ، في كتابى « تراثنا بين ماضى وحاضر » من مطبوعات « معهد البحث والدراسات العربية »
سنة 1968 .

والتأليف فيها بالعربية .

وقد اشتهر منهم (الدكتور كورنيليوس فاندك) الذى درس في بيروت بالعربية : الكيمياء والجويات وعلم الامراض . وعرفت مؤلفاته العربية : الباثولوجية في مبادئ الطب البشرى ، والنقش في الحجر (في تسع مجلدات صغيرة ، كل مجلد منها موجز في علم من العلوم الحديثة ، كالكيمياء والطبيعة والنبات والجيولوجية والفلك والجغرافية الطبيعية) . وله كتب عربية أخرى في الرياضيات ، وأصول الجبر ، والأصول الهندسية ، وأصول علم الهيئة ، ومحاسن القبة الزرقاء ، في الفلك ..

و (الدكتور جورج يوسف) قام بتدريس الجراحة والمواد الطبية والنبات باللغة العربية . ومن مؤلفاته فيها (المصباح الواضح في صناعة الجراح) والاترياذين والمواد الطبية ، ومبادئ التشريح والصحة والفسولوجية ، وكتاب من جزأين في مبادئ علم النبات . وقد ألف معجماً قيمياً باللغة الانجليزية في (نبات سورية وفلسطين والقطر المصرى وبواديها) ذيله بفهرس للأسماء العربية ، نصحى أو عامية ، لمصطلحات المعجم ، عددها نحو ألف وخمسمائة اسم .

و (الدكتور يوحنا ورتبات) علم في كلية بيروت ، التشريح والفسولوجية بالعربية ، وألف بها كتب التشريح ، والفسولوجية ، وحفظ الصحة ، ورسائل عديدة في مسائل طبية (2) .

وقصة :

الى هنا تنتهى خلاصة المعروف من تاريخنا

المترجمون يعربون مؤلفاتهم ، ويحضررون معهم في قاعات الدرس لترجمة دروسهم الى اللغة العربية التى ظلت لغة التعليم الرسمية الى بداية عصر الاحتلال . ولم يفكر أعضاء البعثات العلمية الاولى (من العرب) الذين اوفدوا الى فرنسا لدراسة العلوم الحديثة ، عند عودتهم الى بلادهم ، في أن يلتوا دروسهم على طلاب المعاهد العربية العليا بلغة أجنبية ، بل قدموا الى مكتبتنا العلمية رصيذاً ذا بال من معرباتهم ومؤلفاتهم .

الف الجراح الشهير (محمد على البتلى) كتباً عربية في الجراحة ، و (محمد الشافعى) في الامراض الباطنية ، و (محمد ندى) في النبات والحيوان والجيولوجية والطبيعة ، والصيدلى (على رياض) في الصيدلية والسموم ، و (محمد الدر) في الجراحة والامراض الباطنية ، و (سالم سالم) في الطب الباطنى ، و (محمود الفلكى) في التقاويم والمقاييس والفلك ، و (محمد بيومى) في الحساب والجبر والمثلثات والهندسة الوصفية ..

وشارك علماء اللغة في هذه النهضة العلمية ، فكان منهم خبراء متخصصون في تحرير الكتب العلمية وتصحيحها ، منهم (محمد عمر التونسى) مؤلف « معجم الشذور الذهبية في الالفاظ الطبية » ، و (ابراهيم الدسوقى) الخبير بمصطلحات العلوم الرياضية ، و (رفاعه رافع الطهطاوى) و (احمد فارس الشدياق) و (المعلم بطرس البستاني) في الفاظ الحضارة والفنون (1) .

وكان تراث هذا الجيل من العلماء المصريين ، بين ايدي المستشرقين العلماء الذين وفدوا على الشام في النصف الثانى من القرن الماضى ، وشاركوا في هذه النهضة العلمية بتدريس العلوم الحديثة

(1) من مراجع هذا الموضوع :

- « تقويم النيل » و « التعليم في مصر » لامين سامى — ط القاهرة .
- « تراجم اعيان القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر » — ل احمد تيمور : 1940 .
- « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » للاستاذ مصطفى الشهابى : مطبوعات المعهد 1955 .
- « تاريخ التعليم في مصر » للدكتور احمد عزت عبد الكريم — القاهرة 1945 .

(2) الاستاذ مصطفى الشهابى . « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » ص 42 ط المعهد .

العلمى ، قبل أن تتسلل الى أفقنا دعوى عقم العربية وعجزها ..

أما ما بعد ذلك فيشبه أن يكون قصة محيرة يشق على الدارس منا أن يميز خيوطها المتشابكة في نسيج معتد أشد التعتيد !

من أين بدأت هذه الدعوى ؟

وكيف سارت ؟

والى أين انتهت ؟

من العسير أن نستوعب القصة في أقطار الوطن العربى . وقد اكتفى في هذا المجال المحدود بتتبع فصولها في مصر التى كانت مركزا للغزو الفكرى ، بحكم دورها القيادى في فجر اليقظة العربية ، وإن تكن القصة قد تكررت بصورة أو بأخرى في سائر أقطار الوطن العربى .

مع بدء نكبتنا بالاحتلال عزلت اللغة عزلا تاما عن تدريس العلوم الحديثة التى فرض المستعمر دراستها بلغته . وسائر هذا الانقلاب ترسيخ لفكرة عجز العربية عن تدريس أى علم حديث ، وإنما حسبها أن تبقى في الكتائب والمعاهد الدينية والمدارس الأولية المحجوبة تماما عن الثقافة العلمية الحديثة .

ثم ما لبثت الفكرة أن جاوزت مجالها المحدود ، في القول بعجز العربية عن العلم الحديث ، الى دعوى تعلن أن تخلفنا العلمى والقومى والحضارى في عصور الانحطاط ، إنما يرجع الى تشبثنا بلغة بدوية من أحافير عصر الناقة ، لا تصلح لغير حذاء الأبل والوقوف على الأطلال ، ومحكوم علينا أن نظل نعيش بعقلية الريفيين والبدو في مجتمع الزراعة والرعى ، إذا لم نهجر هذه اللغة العتيقة الى لغة عصرية حية .

وقد اختلطت الدعوى في بعض مراحلها الأولى بالدعوة الى اللغة العامية ، فالدكتور (سبيتا) كان يرى لنا أن نهجر الفصحى السائرة الى الموت ، الى اللغة العامية — على أن نكتبها بحروف لاتينية !

(1) مجلة أصدرها « النديم » عام 1881 .

لكن الحملة على الفصحى سارت بعده فنى طريقين ، أحدهما يدعو الى العامية ، والآخر يدعو الى لغة أجنبية حية بديلا للعربية الميتة ، وهو ما يتصل بمشكلة لغتنا والعلوم الحديثة .

مع بواذر الثورة العربية ، روج عدد من المثقفين العرب لفكرة استبدال لغة أجنبية بلغتنا العربية ، وإذا كان قادة الأمة قد وجدوا في العامية وسيلة الى التعبئة الثورية للوعى الشعبى ، فإنهم لم يجدوا في الدعوة الى لغة أجنبية سوى مسخ لشخصية الأمة وقضاء عليها .

وبدا (عبد الله النديم) من العدد الاول من « التنكيت والتبكيك » (1) حملته على دعاة اللغة الاجنبية ، بحوار ساخر بين ابن البلد و « عربى متفرنج » ، ثم كتب في العدد الثانى مقالا عنوانه : « اضاءة اللغة تسليم للذات » سأل فيه الناطق بالضاد : بم يستعيز عن لغته وما لها من مثل ؟ أعن جهل بتاريخ لغتنا وأسرارها وتراثها وحيويتها ؟ أم عن افتتان بحسن في لغة أجنبية حديثة ليس في لغتنا ؟ ثم استطرده يقول : « ان اللغة سر الحياة ، والحد الفارق بين الانسان والبهيم ... فهى أنت ان كنت لا تدري من أنت ، وهى وطنك ان لم تعرف ما الوطن . أما كونها أنت فلانك بها تعرف أهلك ، وأنت اذا فقدتهم صرت وحيدا غريبا ، في الوجود لا يقول لك تامل من أنت ، وأما كونها وطنك فانه إنما يعبر الوطن ويسمى وطننا بأبنائه ، ومن فقد المواطن فقد الوطن .

« اسمعك تقول : اذا فقدت لغتى اعتضت عنها بأخرى . اعتضت عنها ولكن بما أضاع منك الوطنية والمعتقدات الدينية ... فقتبت وأنت وطنى حراً ، وتصبح وأنت في يد أجنبى يصرفك كيف يشاء ... لان اضاءة اللغة تسليم للذات » .

وهنا تقدم الاستاذ « أمين شميل » ندخل ميدان المعركة بكل وزنه الثقافى ومكانته الادبية فلم يكف بأن نستعير لغة أجنبية (لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها) ، بل نادى بأن نتخلى عن العربية ،

فصحى وعامية الى لغة اجنبية تحيينا عليها وثقافيا واقتصاديا . واكد عقم كل محاولة تبذل لحياء لغتنا العربية المقضى عليها حتيا بالموت !

وكانت وجهة نظره :

— ان اللغة اداة للتعبير . والمرء لا يقيد بلغة خاصة اذا ما استطاع ان يصل الى الهدف وهو التعبير عن نفسه . واذا كانت اللغة العربية ليست اداة صالحة للتعبير لضعفها وضعف اهلها فلا لوم عليه اذا تركها الى غيرها من اللغات الاجنبية لان الانسان مفتطور على طلب التقدم .

— ان اللغة العربية سائرة حتيا الى الموت كما ماتت من قبلها لغات كانت لها خصائص ومميزات مثل اللغة العبرية ، ومع ذلك لم تستطع ان تتغلب على الموت . فبأى شئ نستبقى اللغة العربية ونغرى بالتمسك بها : بحسن كلام ام بلطافة لفظ ام بكثرة مواد لغوية وفصاحة عبارة ؟ اليس ذلك كله كان كثيرا في لغات ماتت كال يونانية والسريانية والكلدانية والقبطية ، دون ان يقيها من الموت شئ ؟

— ان احياء اللغة العربية بعد موتها امر معجز عسير غير مأمون العوائب فضلا عن كونه غير مجد ، من الناحيتين المادية والعلمية على السواء . وانسى لنا ان نكون خيرا من اصحاب تلك اللغات الميتة ، ولسنا سوى بشر من صفاتهم العجز ، وخلفنا مهام هذه الحياة تشغلنا بطلب الرزق ؟

« وهل الاشتغال باحياء ما تقضت الحياة بموته يؤتينا خبزا ؟ اذهب الى دوائر حطامنا ومراكز تجارنا، وانظر بكم يؤجر الكاتب الضادى والكاتب الدالى ، ثم الف كتابا واجعله كله ضادا ، واصرف فيه عمرك واعرضه على قومك ، فترى ما لبضاعتك من رواج .

« اما اللذة العقلية التى احصلها من درس لغتى لانهم كتب علمائها الجليلة واما صدرى من فرائد اقوالهم البديعة ، فانك تعلم أولا ان كل لذات علوم الدنيا لا تملأ بطن جائع ، ولا لذة عقلية لمن لا يحسن غداء جسده . وقد نسيت ثانيا ان مؤلفاتنا التى نفتخر بها — يعنى ذخائر تراثنا — قد نهبت لفظا ومعنى الى مراكز الامم النامية — يعنى الرأقية

المتقدمة — فزادوا عليها امورا كثيرة ، فهى حية فى تلك الامم ميتة عندك ، لاسباب منها : عدم صحة النسخ فكتبنا كلها اغلاط . ومنها عدم وجود من يفهمها الآن وقد مات من كان يعرف معانيها ، ومنها ان كثيرا قد نسخ بها اظهرته التجارب وقام غيره مقامه . ومنها الزيادات الجوهرية التى حدثت بعدهم ويجب معرفتها مما لا وجود له فى هذه الكتب . ومنها عدم وجودها كلها اذ لم يبق منها الا الطفيف :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاهما وحتى سامها كل مفلس

وهذا الهزال الباقى اذا كنت سعيدا وعثرت عليه ، تلتزم بدفع ثمنه مالا جزيلا ، ومن اين لك المال يا اخى وانت تتجر ببضائع اكلها العث وبدلتها الموضة ؟ »

— ان من اراد كسبا ماديا وعلميا فليختر لغة غير العربية « اية لغة اجنبية ان كتبت بها راجت كتابتك ، وان طلبت تحصيل علم فيها وجدت كتبنا لا تحصى فى غاية الضبط والكمال امتلأت خزانتك . منيا كتب اجدادك قد تصفحها اصدادك ونقحوها وشرحوها وزادوا فيها ، ويسروها لك بشن أرخص من الفجل . فاذا اشتبه عليك معناها وجدت الوفا يكشفون لك غوامضها ويحلون لك عقدها . نعم ان فى لغة الطفولة لذة ووطنية ، الا ان الوطنية الحققة ، ودعنا من الكلام الفارغ ، قائمة فى المعانى لا فى الالفاظ اعنى فى صيانة حقوق الامراد واحكام العدل والتسوية والاتفات الى الامة ولغتها وعدم اعطاء خبز بنيها لغيرهم ، فاذا فعلت هيئتنا ذلك هان عليها كل شئ ، والا فانت تضرب فى حديد بارد ، وكانت الوطنية قولهم : ضرب زيد عمرا واشتعل الرأس شيبا .

وقد نشر النديم مقال شميل بعنوان « كلمة غيور على لغته » فى العدد الخامس من (التنكيث والتبكيث) — (10 — 7 — 1881) .

ثم بدا الرد عليه ، فرأى ان يفرغ أولا من بيان حقيقة ان اضاءة اللغة تسليم للذات ، واستنراق الشرح مثلا مطولا فى العدد الثالث عشر من (التنكيث) حيث اوضح ان من يتخلون عن لغتهم يفقدون الجنسية راسا ويتجنسون باللغة الطارئة ،

« فإذا كانت أمة مستقلة وغيرت لغتها بغيرها ، ضعف فيها الاستقلال بقدر ما يضعف من لغتها ، فإذا تم التغيير فقدت الاستقلال ووقع فيها الخذلان » .

لكن أحداث الثورة العربية لغته في دوائها ، حتى إذا عاد إلى الظهور بعد أن اختفى تسع سنين ، كان الاحتلال الإنجليزي قد تسلط على مرافق البلاد الحيوية ، وعزل اللغة العربية عن المجال التعليمي والعلمي ، وفرض اللغة الإنجليزية لغة للتعليم .

وإذا كانت السلطة حين رخصت للنديم في إصدار صحيفة « الأستاذ » قد حرمت عليه الاشتغال بالسياسة ، جعل منها النديم مجالا للدفاع عن لغة الأمة ولسان قوميتها ، وحشد طاقته للجهاد في معركة الغزو اللغوي الذي كان ذريعة لترسيخ الاستعباد السياسي والقضاء على الأمة .

وبدا نضاله من حيث انتهى به القول في « إضاعة اللغة تسليم للذات » عام 1881 م ، فاستأنف رده على المقال الذي كتبه أمين شميل قبل نحو أحد عشر عاما ، فلم يلمه على ترك اللغة العربية وهي ليست لغة الانجيل كتاب دينه ، ولكن ماذا عن القرآن ؟

ورد على المقارنة بين فقر الكاتب الضادى وهو انه لدى الحكام وأصحاب العمل ، مع غنى الكاتب الدالي وقيمته « بأن الأمة ليست كلها في دوائر الحكومة ولا متجرة مع أوروبا ، وإنما الجأ بعض الأمة إلى تعلم اللغات الأجنبية سوء تصرف بعض الحكام ، فبدل أن يتكلف الأوربي المنتقل إلى بلادنا اتجارا واستيطانا ، تعلم لغتنا ليعاملنا أو يخاطبنا بها ، علموا هم بعض الأمة ليعمل الأوربي ويساعده على نفوذه باتساع نطاق لغته فينا . فحق لهذا الفاضل — الأستاذ شميل — أن يبكث الذين أحيوا لغة الأجانب بأمانة لغة البلاد . ولكن لو فرض وتعلمنا اللغات الأجنبية وتكلمنا بها عند الحاجة إليها ، لوجب أن نحافظ على لغتنا لبقاء الدين والجنس ببقائها » .

وحديث (شميل) عن ذخائر تراثنا الذي رأي أن يلتبسها من شاء منا لدى الأجانب الذين نهبوا وفهموها وشرحوها ويسروها للقراء ، رد عليه النديم بأن في كلامه اقرارا بأن الإنجليزي أو الفرنسي لم يفهمها إلا بعد أن تعلم لغتنا واتقن معرفة قواعدها ، والا لاستحال عليه أن ينطق بالكلمات العربية من خارجها فضلا عن فهم معناها . فإذا كان الأجنيي يقدر على فهم معاني لغتنا لينقل ما فيها إلى لغته ، أفلا نتعلمها نحن للمحافظة على ما عندنا ؟ وإذا كان الأجنيي يقدر على فهم معاني لغتنا وهي أجنبية عنه ، أفلا نقدر على فهم مؤلفات علمائنا ونحن من عشيرتهم ؟ وأما تعليقه بالاغلاط — في كتب تراثنا — فإظنه من باب التنكيت ! فإن الذين تمدح بهم من الأفرنج ما أخذوا تلك العلوم إلا من هذه الكتب ، فيلزم أن تكون علومهم فاسدة لأنها مأخوذة من أغاليط لا صواب فيها . فان قيل انهم صححوها وهي بغير لغتهم ، قلنا : أفلا يقدر أصحاب اللغة على تصحيح كتبهم وهم أدري بها من غيرهم ؟ وأما قوله : قد مات من كان يفهم معانيها ، فإنه منقوض بنفس القائل ، فإنه أحد من يتكلمون باللغة العربية وله اقتدار على فهم معاني تلك المؤلفات والاخذ منها والنقل عنها كما فعل في مؤلفاته العربية (1) مع كونه غير مشتغل بجميع العلوم العربية . فالعلماء القائلون بتعلم تلك العلوم ودراستها يعرفونها حق المعرفة ، ولهم على كل كتاب شروح وحواش . تشهد بذلك الكتب التي الفت من القرن الأول الإسلامي إلى الآن . على أن العلوم التي اهتمت في الشرق كالطب والهندسة والجغرافية وغيرها واستعملت في الغرب قد ترجمها الشرقيون إلى لغتهم وقرأوها في مدارسهم . فهذه المدارس المصرية قرئت فيها العلوم القديمة والمترجمة ، ولم يفقها شيء مما كتب في أوروبا ، ولم تتغير كيفية التدريس من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية أو الإنجليزية إلا في هذه السنة ، وهي نشأة موقته لا تمكث إلا بقدر ما يطالب المصريون بحياة لغتهم التي يصرفون أموالهم على المدارس التي هي فيها ، ولا يعارضهم في ذلك معارض ، فإن الأجنيي لم ينفق

(1) ألف الأستاذ شميل في القانون والسياسة والأدب . ومن مؤلفاته : « الوافي » في تاريخ المسألة الشرقية ، و « المبتكر في الأدب » (5 مقالات + 25 قصيدة) ، و « نظام الحكومة الإنجليزية » و « الدرّة الجليّة في المباحث القضائية » .

البكرى لرياسته ، ومحمد بريم لاعمال السكرتارية .
وعقدوا سبع جلسات ناقشوا فيها عددا من
المصطلحات العلمية ، وكان آخر الجلسات يوم 27
— 2 — 1893 .

وفي العام نفسه ظهرت مجلة «المهندس» فقدمت
تجربة عملية لكتابة البحوث العلمية باللغة الفصحى
تحديا لمجلة «الازهر» (1) وحضرا لدعوى من قالوا
بعجز العربية عن أداء العلوم الحديثة . وقد تولى
«المهندس أحمد كامل» تحرير القسم الهندسى
والرياضى و «الدكتور مهدى» تحرير القسم الطبى ،
و «حسن بك حسنى» تحرير القسم الفلسفى .

وشهدت مرحلة اليقظة حركة تطور في اساليب
العربية ونهوض باللغة ، استوعبها الاستاذ العميد
محمد خلف الله في كتاب «معالم التطور الحديث
في اللغة وآدابها» (ج 1 — القاهرة 1961) .

ثم شهد النصف الاول من هذا القرن عددا من
علمائنا ، عكفوا في اخلاص باذل ، على وضع معاجم
للعلوم ، من أشهرها معجم الدكتور محمد شرف
(بالانجليزية والعربية) في العلوم الطبية والكيمياء
والطبيعة والمواليد والنبات ، ومعجم الحيوان والمعجم
الفلكى للدكتور أمين المعلوف (بالانجليزية والعربية
ايضا) ، ومعجم اسماء النبات للدكتور أحمد عيسى
(بالعربية والفرنسية) ومعجم الالفاظ الزراعية للأمير
مصطفى الشهابى (بالعربية والفرنسية) . ونشرت
مجلات المرحلة — كمجلة المجمع العلمى بدمشق
ومجلة لغة العرب ببغداد ومجلة المقتطف بمصر —
بحوثا علمية واتسعت لكثير من المصطلحات العربية
او المعربة . واشتغل عدد من اعلام العصر بتحقيقات
لغوية للالفاظ العلمية . منهم أحمد تيمور وأحمد زكى
في بحوثهما في الفاظ الحضارة واسماء البلدان ،
والسيد عبد الحميد البكرى في تحقيقه لالفاظ الفلك .
ونشر الدكتور مأمون الحموى بحثا في المصطلحات
الدبلوماسية (دمشق 1949) والدكتور عدنان
الخطيب في لغة القانون (دمشق 1952) والدكتور
بشر فارس في مصطلحات فن التصوير (مصر 1945)

على المدارس درهما ولا دينارا حتى يحتم علينا لغته
التي لا حاجة لنا بها في التدريس . (الأستاذ : 20
— 3 / 6 / 1893)

وهذا الحوار بين النديم وشميل يكتفى هنا
لاعطاء فكرة عن ابعاد المعركة واسلحة الفريقين
فيها ، لكى نتابع قضية العربية والعلوم الحديثة
فنرى انه بقدر ما رفض الضمير القومى التخلّى عن
لغة الابة ، عجز عن التصدى لفرض العربية على
المجال العلمى ، وقد عزلت تماما عن هذا المجال ،
حتى اعترف الوطنيون انفسهم بقصورها عن أداء
العلوم الحديثة ما لم تبذل جهود مخصصة لعلاج هذا
القصور .

ويمكن القول ان الشعور بمحنة العربية بدأ
منذ اغلقت المعاهد العلمية مدرسة اللسن في عصر
(سعيد) . ففى عام 1860 دعا (أحمد فارس
الشدياق) في مجلة «الجوائب» الى تأزر جهود
المشايع والعلماء ، لتعريب مصطلحات العلوم والفنون
التي لم يكن لسلفهم معرفة بها . وحمل الدعوة من
بعده (عبد الله فكرى) في «الآثار الفكرية» عام
1876 ، ثم تولاها (النديم) في «الاستاذ» من عام
1892 لانما الى واجب القائمين بالامر فينا ، في ان
يحولوا بين اللغة وموتها ، باحداث جمعية من مشايخ
الازهر وفاضل العلماء العارفين باللغات الاجنبية ،
ليضعوا للاصطلاحات الطبية والكيمائية والهندسية
ومفردات الكلام ، اسماء عربية تدرس بها تلك
العلوم .

ووجدت الدعوة استجابة عملية ، ففى اوائل
عام 1893 اجتمع في دار السيد محمد توفيق البكرى
عدد من علماء العصر وكتابه ، لدراسة مشروع
المجمع ، وهم المشايخ : الشنقيطى ، ومحمد عبده ،
وحمزة فتح الله ، وحسن الطويل ، والسادة : حفى
ناصر ، ومحمد بريم ، ومحمد المويلحى ، ومحمد
عثمان جلال ، ومحمد كمال .

ووضعوا لائحة للمجمع ، وانتخبوا السيد

(1) مجلة آلت الى (وليم ويلكوكس) في ديسمبر 1892 حاول ان يجعل منها متبرا للدعوة الى العامية
وامانة الفصحى .

للفاقة الثقافية التي نعانيها في وقتنا : « لان هذه اللغة لا ترضى مثقفا في العصر الحاضر ، اذ هي لا تخدم الامة ولا ترقىها ، لانها تعجز عن نقل نحو مائة من العلوم التي تصوغ المستقبل » (1) .

واضطرب بين الدعوة الى العامية والدعوة الى لغة علمية ، ليست هي لغة القرآن وتقاليد العرب البالية ، مع الاحاح في النصيح لنا باستعمال الحروف اللاتينية .

.. ونعرض هنا للغة العلمية ، من حيث اتصالها بموضوع هذه المحاضرة ، فنراه يتصور اننا سوف نتطور من العقلية الزراعية البدوية ، اذا اشتغلنا بتأليف الكتب عن اقطاب الصناعة في عصرنا ، بدلا من التأليف في اعلام تاريخنا .

ويطرح هذا السؤال :

« نحن نحاول ان نرقى بأمتنا ، ولكن ما معنى الرقى ؟ »

ثم يجيب : « هذا الرقى يعنى اننا نعيش المعيشة العلمية حيث تستند الحقائق الى البيانات لا الى العقائد ... فيجب لهذا السبب ان تكون لغتنا علمية وثقافتنا كوكبية وكتابتنا لاتينية » .

اما اللغة العلمية ، فتعنى عنده ان كتب المطالعة في المدرسة والبيت يجب ان تتناول موضوعات البيولوجية والاجتماع والتراجم والكيمياء والفلكيات والاقتصاد والصناعة ، بدلا من مقطوعات ادبية من كتب العرب قبل الف او خمسمائة سنة » - 96 .

كما تعنى ان نكف عن الاساليب الادبية ، لنكتب بلغة الارقام واللغة العصرية .

وهذه نماذج من مشتقاته من هذه اللغة العلمية :
من الطب :

— اللغة هي الجهاز العصبى للمجتمع .

— خوف الغارات قد نفذ الى جميع مسام المجتمع .

(1) لمزيد تفصيل عن جهود العلماء والجامع فسي هذا المجال ، اقرا كتاب الاستاذ مصطفى الشهابى (المصطلحات العلمية في اللغة العربية) ط المعهد 1955 .

وشارك العلماء المستشرقون في هذه الحركة ، منهم الاستاذ جريفل في (الحيوانات البحرية والنهرية في سورية ولبنان) والدكتور ماير هوف في تحقيق اسماء نباتية طبية ، وشرح اسماء العتار لابن ميمون الإنذلى ، والدكتور رينو والاستاذ كوليين ، في شرحهما لمخطوط عربى مجهول المؤلف ، عنوانه « تحفة الاحباب في ماهية النبات والاعشاب » .

وتألفت لجان في مصر وسورية والعراق ، لوضع مصورات جغرافية بأسماء عربية صحيحة ، وتعريب المصطلحات العسكرية ، وتألفت المجامع الرسمية لتدعيم هذه الحركة ورعايتها . فتأسس المجمع العلمى بدمشق عام 1919 . والمجمع اللغوى بالتهرة عام 1932 ، ثم المجمع العلمى ببغداد عام 1947 (1) .

ولكن هذه الجهود المبذولة على مدى نصف قرن ، لم تستطع ان تعيد اللغة العربية الى مجالها الحيوى في الدراسة العلمية ، بل لم تستطع كذلك ان تحسم الجدل القديم حول صلاحيتها لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها . وقد خلا ميدان المعركة من الاجانب بعد ان خرج ويلكوكس ودخله الاستاذ سلامة موسى ، فردد القول بمسؤولية اللغة العربية عن تخلفنا العلمى الى جانب مسؤوليتها عن تخلفنا الحضارى والاقتصادى والاجتماعى ، وعن الجريمة والجنون .

وكان الاستاذ واعيا لكل ما يشكو المصلحون الوطنيون من رواسب عصور التخلف والانحطاط ، في المجتمع وفي اللغة ، حريصا على تتبع ما يقترحون من علاج لمشكلات حياتنا اللغوية . وقد اخذ من هذا كله ، ما يؤيد به حملته على هذه اللغة المسؤولة عن كل امراضنا !

واشتدت حملته على (الاحافير اللغوية) وسخريته بالزهو المضحك لمن يعتقد ان لغتنا تستطيع ان تجتر نفسها . وهذا الاعتقاد من اكبر الاسباب

— يمشى فى تناقل روماتزمى .

— الوقت كالخثرة فى الدورة الاقتصادية المصرية .

— يعانى تخمة ذهنية .

من الكيمياء :

— كان مذهب التطور من أعظم الخائس الاجتماعية .

ومن الطبيعة :

— الاستقلال هو بؤرة الاشتعال الوطنى .

— من الحركات المغنطيسية التى تجذب الشبان ...

— الطاقة الموطرية فى الكلمات .

ومن الميكانيكا :

— يرى المصباح الاحمر اينما سار .

— الحرب هى قاطرة التاريخ لانها تعجل التطور

ومن الموسيقى :

— الحياة تفقد ايقاعها فى المرض .

ومن السيكلوجية :

— تجرئمت الفكرة عندى .

ولست ادري ما تمية هذه العبارات الركيكة التى ساتها فى باب « اللغة العصرية » (ص 75) . ونحن السلفيين سدنة لغة القرآن ، تجرى اتلامنا بأساليب بيانية من مثل قولنا : نبض المجتمع ، وحس العربية ، وغشية الدوار ، واخذة المفاجأة ، واتزان الراى ، وسراب الوهم ، والمناخ الفكرى للعصر ، ونلك التصور ، وقطب الجماعة ، ومحور الموضوع ، واعصار التتار ، وتيارات الغزو ، وكثافة الحس ، وشلل الخطى ، وعمم الوجدان ...

دون أن تشفع لنا هذه « اللغة العلمية » لدى من ينكرون علينا سلفيتنا اللغوية ، بل ما نزال فى رأيهم نعيش بعقلية بدوية زراعية ، ولم تفلح هذه

الاساليب فى نقلنا الى مناخ العصر !

وليسوا بحيث يدرون أن لغة القرآن التى زعموا أنها تنأى بنا عن روح عصرنا ، حافلة بروائع من آيات البيان الاعلى ، تستخدم ما يسونه اللغة العلمية ، على نحو يتضاعل دونه كل ما حشدوا ويحشدون من عباراتهم العصرية الهابطة ، كمثّل آيات :

« رايت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت » (محمد : 20) .

« اعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » (ابراهيم : 18) .

« او كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب . ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (النور : 40) .

« يكاد سنا برقه يذهب بالابصار » (النور : 43) .

« والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظلمان ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئا » (النور : 39) .

فأين من هذه الآيات المحكمات ، تجرئمت الفكرة وقاطرة التاريخ والخثرة فى الدورة الاقتصادية ، والطاقة الموطرية فى الكلمات ؟ ما أرى الاستاذ سلامة موسى قدم حلا لازمة العربية واللغة العلمية ، وهو لم يلبث أن ترك هذه العبارات العصرية ليدعو الى « الخط اللاتينى » الذى انتهت اليه آماله فى رقى الامة وتطورها وأصلاح المجتمع ، وحامت حوله احلامه فى عالم سعيد او « يوتوبيا الضائعة » .

وقد انتظر بدعوته حتى ظهر الاستاذ عبد العزيز فهمى باقتراحه فى العدول عن الحروف العربية الى الحروف اللاتينية تصدا الى التيسير فى ضبط الكتابة وتحديد حركات الحروف بها يغنى عن ضبطها بالشكل . فتلفت الكاتب المصلح « الاستاذ سلامة موسى » هذا الاقتراح وقال :

« هذا السخط الذى يتولانا كلما فكرنا فى حالنا الثقافية وتعطيل هذه اللغة لنا عن الرقى الثقافى ، تزيد حدته كلما فكرنا وادى بنا التفكير الى اليقين بان اصلاحها مستطاع . والقلق عام ولكن الجبن عن الابتكار اعم . ولذلك قلما نجد الشجاعة للدعوة الى الاصلاح الجرىء الا فى رجال نابيهين لا يبالون الجهلة والحمقى ، مثل قاسم امين ، او احمد امين فى الدعوة الى الغاء الاعراب ، ومثل عبد العزيز فهمى حيث يدعوا الى الخط اللاتينى والواقع ان اقتراح الخط اللاتينى هو وثبة المستقبل لو اننا عملنا به لاستطعنا ان ننقل مصر الى مقام تركيا (! ؟) التى أغلق عليها هذا الخط ابواب ماضيها وفتح لها ابواب مستقبلها .

« وهذا الاقتراح يحتاج أولا الى الغاء الاعراب وميزاته :

« أولا : الاقتراب من التوحيد البشرى لانه وسيلة القراءة والكتابة عند المتعلمين الذين يملكون الصناعة ، اى العلم والقوة والمستقبل . وهذا الخط تأخذ به الامم التى ترغب فى التجدد كما فعلت تركيا . ومن المرجح ان يعم هذا الخط العالم كله تقريبا .

« وثانيا : حين نصطنع الخط اللاتينى يزول هذا الانفصال النفسى الذى أحدثته هاتان الكلمتان **المشؤومتان** : شرق وغرب ، فلا نتغير من ان نميش العيشة العصرية . ولا بد ان يجر هذا الخط فى اثره كثيرا من ضروب الاصلاح الاخرى مثل المساواة الاقتصادية بين الجنسين ، ومثل التفكير العلمى والعقلية بل النفسية العلمية ايضا ، الخ .

« وثالثا : ورابعا وخامسا ...

« وسادسا : اننا عند ما نكتب بالخط اللاتينى نجد ان تعلم اللغات الاوربية قد سهل ايضا ، فنتفتح لنا آفاق هى الآن مغلقة .

« وبالجملة نستطيع ان نقول ان الخط اللاتينى هو وثبة فى النور نحو المستقبل ، ولكن هل العناصر التى تنتفع ببقاء الخط العربى والتقاليد ترضى بهذه الوثبة ؟ » (1)

فهل الامر حقيقة بمثل هذه البساطة ؟

وهل استطاعت تركيا — القوة والمثال — ان تبلغ بحروفها اللاتينية من التقدم الصناعى والرقى العلمى ما بلغته اليابان أو الصين الشعبية ، بلغاتها الشرقية الآسيوية العتيقة ؟

أو هل استطاعت غانا — والانكليزية لغتها الرسمية والثقافية ، ان تملك من العلم والقوة والمستقبل ما لا تملكه مصر أو المغرب مثلا ؟

أو هل خرج السودان الجنوبي — ولغته الانكليزية — من الشعوب المتخلفة الى الدول المتقدمة ، وتحرر من الكلمتين المشؤومتين : شرق وغرب ، فاستطاع ان يعيش المعيشة العصرية وضمن تحقيق المساواة الاجتماعية والاقتصادية بين الجنسين والتفكير العلمى والنفسية العلمية ، وانفتحت امامه آفاق موصدة فى وجه السودان الشمالى بحكم لغته العربية التى يجبن عن التخلى عنها ، رجال تعوزهم الجراة والنباهة كيلا يبالوا الجهلة والحمقى ؟

لكن هذه الدعاوى العريضة التى لا تصمد لنظر أو منطق أو واقع ، وجدت من يؤمنون بها من مثقفينا السائرين غربا « لان هذه اللغة العربية لا ترضى مثقفا فى العصر الحاضر اذ هى لا تخدم الامة ولا ترقبها ، لانها تعجز عن نقل نحو مائة علم من العلوم التى تصوغ المستقبل وتكيفه » — كما أكد سلامة موسى فى كتابه « البلاغة العصرية واللغة العربية » .

بل أخشى ان اتول انها ساعدت على ترسيخ الفكرة العامة عن عجز لغتنا عن مسايرة التقدم العلمى ونقل علوم العصر .. ومن هنا كان الخطر ..

فالامة حين تحسن هجوما على عناصر ذاتها ومقومات اصلتها ووجودها من اجنبى غريب عنها مهما يكن زيه أو قناعه ، تتحفز لانتقاء الخطر فى مواجهة عدو سائر ، فتأخذ كلامه بمنتهى الحرص والحذر ، وقد يصل موقفها منه الى حد الرفض والتحدى .

(1) سلامة موسى : « البلاغة العصرية » ص 109

أيام آبائنا الاقربين ، فضلا عن جيل اليقظة في القرن
الماضي الذي عرب علوم زمنه .

وعلى مدى نصف قرن أو أكثر ، شهدت حياتنا
اللغوية ما أشرنا اليه من جهود فردية سخية لوضع
المصطلحات العلمية في اللغة العربية ، الى جانب ما
قامت به الهيئات العلمية من جهود في هذا الميدان .
وتمضى عشرات السنين ..

وما تزال لجان المصطلحات العلمية ، حتى
يومنا هذا ، تتابع عقد جلساتها ومؤتمراتها ، وتثبت
في تقاريرها أو مجلاتها ، ما يستقر عليه الرأي من
مصطلحات علمية . وما يزال مركز تنسيق التعريب
في الرباط يوالى ارسال رسائله الى علماء الوطن
العربي يستفتيهم في مشكلات تعريب العلوم .

وما يزال عدد من علمائنا وعلماء الاستشراق،
يتابعون نشر كتب علمية من ذخائر تراثنا ، وقد يكتفى
أن اذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

— مختارات من رسائل جابر بن حيان ،
(ت 198 هـ) تحقيق بول كراوس — ط
الخانجي بالقاهرة 1935 .

— « المختصر في حساب الجبر والمقابلة » ،
للخوارزمي (ت 236 هـ) — د . على
مشركة ، و د . محمد مرسى أحمد —
القاهرة 1937 .

— « صورة الارض » ، للخوارزمي ، (1)
ظهرت منه طبعة كاملة بمعرفة متزك ،
وبحوث عنه بقلم تالينو (1895) ومتزك
وهو نجمان (1929) . ويقول
كراتشوفسكى : « يجب الاعتراف ، تبعا
لنلينو ، وبارتولد ، بأنه لا يوجد شعب
اوربي واحد يستطيع أن يفخر بمصنف يمكن

أما حين تنتقل السهام الى أيدي نغر من ابنائها
فإن الخطر يأتي من حيث لا تتوقع ، ودون أن تتأهب
لاتقائه بشيء من التوجس والحذر والارتياح .

وما يكتبه الاجانب عن عقم العربية ، قلما يصل
الى مجال التأثير العام بحكم عزلة الجماهير ونفورها
من الاجنبي ، وانما يصل اليهم عن طريق المثقفين
الذين ينتمون فكريا الى الغرب ، وهم عادة ينفقون
الى المجال الثقافي بدعوات اصلاحية تقدمية ، ثم
لا يلبثون أن يكتشفوا في شخصيتهم لامراض المجتمع،
أن لغتنا العربية هي علة العلل وأصل الداء ، والتقيّد
الباهظ الذي يشل خطانا نحو التقدم ، والسد الاصم
الذي يحجز بيننا وبين آفاق العصر .

ويمضي وقت غير قصير قبل أن يتصدى الوعي
القومي لمواجهة الخطر ، لكن بعد أن يحدث الضجيج
اثره في المناخ الفكري للامة ، بحيث تحتاج الى جهد
شاق يستغرق أمرا لكي تسترد ائزان خطاها وصفاء
افقها .

وفي قضية « العربية والعلوم الحديثة » كانت
دعوى عجز هذه اللغة وعمقها ، من جانب « سبيتا »
وويلكوكس ، وويلمور ، وغيرهم من الاجانب
الغريباء ، بحيث تذهب مع الريح ، لو لم تجذب اليها
عددا من كتابنا ذوى الثقافة العصرية ، ممن كتبوا
في التقدمية والتطور والاشتراكية . وعن طريقتهم
أخذت مجراها في حياتنا القومية .

وكان ربط تخلفنا العلمي والثقافي والاجتماعي
والحضاري بيداوة العربية وجهودها ، هو الذي
مكن للدعوى من مناطق التأثير ، فصدق بها من
صدق عن جهل أو غفلة ، وتحير المثقفون العرب
الاصلاء من امر لغتهم التي عرفوا تاريخها العلمي .

وكان رأي الكثرة من علمائنا ، أن العلوم
الحديثة تقدمت اشواطا بعيدة المدى عن العهد بها

(1) الكتاب ذكره أبو الفدا باسم « رسم الربع المجهول » ودرسه المؤرخ البولندي ليلويل (Lelewel) وخرج بدعوى أعلنها ، هي أن الكتاب ترجمة لرسالة وضعها باليونانية مؤلف اغريقي عاش في بلاد الاسلام ، من المصادر الاسلامية لكن دعواه انهارت من اساسها بعثور « سبيتا » على اصل المخطوط العربي بالقاهرة سنة 1878 وتدخلت اليه العلماء بمقالين نشرهما في عامي 1879 و 1883 ، ثم انتقل المخطوط بعد وفاته سنة 1883 الى ستراسبورج . انظر كراتشوفسكى في « تاريخ الادب الجغرافي العربي » ص 68 من الطبعة الاولى للترجمة العربية للدكتور صلاح الدين هاشم .

ان يقارن بهذا الكتاب الذى افه الخوارزمى،
اكبر رياضى عصره ، وواحد من اكبر
رياضى جميع العصور على الاطلاق ، اذا
اخذنا فى حسابنا اختلاق الظروف .

— « الذخيرة فى علم الطب » لثابت بن قرة
(ت 288 هـ) — تحقيق الدكتور جورجى
صبحى — ط الجامعة المصرية 1928 .

— « الحسن بن الهيثم » بحوثه وكشوفه
البصرية (ت 422 هـ) — الاستاذ مصطفى
نظيف — الجامعة المصرية 1942 .

— « استخراج الاوتار فى الدائرة بخواص
الخط المنحنى فيها » للبيرونى (ت 440 هـ)
— أحمد سعيد الدمرداش . الدار المصرية
للنشر بالقاهرة .

— « الآثار الباقية » لابی الريحان البيرونى —
معهد الاستشراق ، طشقند .

— « كتاب الجواهر فى معرفة الجواهر »
للبيرونى — كرنكو ، حيدرآباد 1937 .

— « القانون المسعودى » فى الهيئة والنجوم ،
للبيرونى . د . بول كراوس .

— « القانون فى الطب » ، للرئيس ابن سينا
(ت 428 هـ) ، 13 جزءا ، ط بولاق 1877،
طشقند 1956 .

— « الشفاء » فى المنطق والطبيعات والالهيّات
لابن سينا — المجمع اللغوى بالقاهرة ،
1951 ، 1965 .

— « شكل القطاع » لنصير الدين الطوسى ،
(ت 673 هـ) — الاستاذة ، سنة 1309 هـ .

— « المعتمد فى الادوية » لابن البيطار (ت
646 هـ) — الاستاذ مصطفى السقاء — ط
الحلبى 1951 .

— « الفوائد فى اصول علم البحار » لاحمد بن
ماجد — ق 9 هـ ، ط باريس 1924 .

— « ثلاثة راهبات — اراجيز ، فى علم
البحار » لاحمد بن ماجد — شوموفسكو ،
موسكو 1957 .

— بحوث تيدمان فى كتاب « نهاية الادراك فى
درية الافلاك » لقطب الدين مسعود
الشيرازى (ت 634 هـ) ، تلميذ العالم
الفلكى نصير الدين الطوسى . وفى الكتاب
مباحث فى الكوزمولوجيا والمترولوجيا
والميكانيكا والبصريات .

— وانظر ما نشر المستشرقون من تراث العرب
الفلكى والجغرافى والملاحى ، فى فهرس
كراتشكوفسكى لكتابه « تاريخ الادب
الجغرافى العربى » ، وفى كتاب نلينو :
« الفلك عند العرب » .

الى جانب ما نشر علماءنا من بحوث فى المجالات
العلمية ، بمصطلحات عربية أو معربة فى العلوم .
تجدون بيانا لها فى محاضرات الامير مصطفى
الشهابى : « المصطلحات العلمية فى اللغة العربية » .

ولا اثر من هذا الجهد السخى المبذول يصل
الى حياتنا العلمية ، ودعونا من حياتنا العلمية التى
التقطت من بعض مصطلحات المعجبين ، ما اتخذت
منه موضوع فكاهة ومادة تندر ..

والمفروض ان جهود العلماء فى نشر التراث
العلمى لعصر ازدهار الحضارة الاسلامية ، واستكمال
الحركة العلمية فى التأليف والترجمة لطليع العصر
الحديث فى النصف الاول من القرن الماضى ... كانت
موجهة الى تمكين اللغة العربية من استرجاع مكانها
فى تدريس العلوم والتأليف فيها ، ونقل كل جديد
مستحدث الى المكتبة العلمية العربية .

لكن الذى حدث هو ان الكليات العلمية فى
جامعاتنا ظلت بمعزل عن كل تلك الجهود ، وتابعت
تدريس الطب والهندسة والطبيعات والرياضيات ...
باللغة الانجليزية أو الفرنسية ، وكأن الجامعات فى
واد وجهود العلماء والهيئات فى تعريب العلوم الحديثة
ومصطلحاتها فى واد آخر .

ثم كان الفصل الاخير من هذه القصة المعقدة ، رسالة من موسكو تحمل مجموعة من الكتب العلمية الحديثة مطبوعة بالعربية الفصحى في (دارمير) للطباعة سنة 1968 !

ولم نسمع أن لجأتا عقدت لبحث مشكلات هذا التعريب ، أو أن جدلا اثير حول صلاحية اللغة العربية لاستيعاب علوم العصر !

وانما خرج كل كتاب يحمل اسم العالم الذي ألفه :

* ف . تسبجيلسكى : اللحام الكهربائي .
* س . فومين : المرجع للملاطى عمال الخراطة والعمال الفنيين .

* ماليشيف ، ونيكولايف ، وشوفالوف : أسس الميكانيكا العملية .

* افروتين : أسس تشغيل المعادن .
* جلاجوفا : الدوال ومنحنياتها .

ما اتمى الدلالة التى تعطىها هذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية في موسكو ، بعد كل ما تضخم به رصيدنا من تقارير اللجان ومؤتمرات الجامع وجهود العلماء ، على امتداد نصف قرن من الزمان !

وما ابلغ هذا الفصل الختامى لما طال جدلنا فيه وتعددت أزمئنا به .

لقد بدأت القضية بعزل الاستعمار لغتنا عن العلم ، ثم الدعوة الى هجر لغتنا واستعارة الانجليزية أو الفرنسية للعلوم الحديثة ، وكان هاتين اللغتين دون الالمانية أو الروسية أو اليابانية مثلا ، هما المفتاح السحري لكنوز العلم .

وانتهت بكتب (دارمير) للطباعة في موسكو ، في عصر غزو القمر .

فأين نحن من البداية والنهاية ؟

باستثناء كلية الطب في الجامعة السورية ، التى تأسست في دمشق سنة 1919 — في عهد الملك فيصل الاول ، باسم « المعهد الطبى العربى » لتحل محل كلية الطب التركية ، وصممت من عام تأسيسها على تدريس العلوم الطبية بالعربية . وكان مجلس اساتذتها أشبه بمجمع لغوى ، تدارسوا فيها المصطلحات التى جاءت في تراثنا من كتب الطب ، وفي الكتب المصرية التى ألفها علماءنا ، في عهد محمد على ، والكتب التى ألفها اساتذة الطب في جامعة بيروت قبل أن تهجر العربية الى اللغة الانجليزية .

واستطاع اساتذة دمشق أن يؤلفوا كتباً قيمة في فروع الطب المختلفة ، وفي الكيمياء والفيزياء والمواليد .

فألف الدكتور مرشد خاطر سفرًا في علم الجراحة من ستة مجلدات ، وأوجزها في مجلدين .

وألف الدكتور أحمد حمدي الخياط كتابًا في علم الجراثيم ، والاستاذ محمد جميل الخانسي في علم الطباعة ، والدكتور حسنى سبوح في الامراض الباطنية (7 مجلدات) ، والدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي في الكيمياء ... (1)

ولكن هذه التجربة الناجحة في العربية لم تتكرر ..

بل لم تستطع ، بعد أن طال بها الزمن أربعين عاما ، أن تقنع جامعات مصر وبيروت والخرطوم بتعريب كلياتها العلمية .

وكانت المفارقة العجيبة أن جامعة الأزهر ، أعرق جامعة اسلامية ، وجامعة الرياض ، عاصمة الجزيرة العربية ، اعتمدتا اللغة الانجليزية للتدريس فيما استحدثنا من كليات علمية (2) .

وبدا كأن قضية العربية وعلوم العصر ، قد وصلت الى باب مسدود ...

(1) لكلية طب دمشق جهود أخرى في الميدان : أشار إليها الأمير مصطفى الشهابي : المصطلحات ص 58 .

(2) تعريب الدراسة في الكلية الطبية ببغداد أيضاً ، في الاعوام الأخيرة .

شئى الوسائل لعلاجِه ، كنا كمن يحرق في البحر ...

واذا كانت العربية قد صمدت لكل هذه الحملات الضارية التي جاءت من الاجانب الغريباء ومن ابنائها المتغربين ، تحاربنا باللهجات العامية حيناً وبالخط اللاتيني حيناً آخر ، وتتهمها باليداوة والعقم فتعزلها عن الميدان العلمى لتظل نائية بها عن روح العصر .

أقول اذا كانت العربية قد صمدت لهذه الحملات ، فلانها دون ريب تملك من القوة والحيوية والصلاحية للبقاء ، ما قاومت به محاولات المسخ ورفضت نبوءة المتنبئين لها بالموت * .

وحين أقول : انتهت القصة ، فاني اعنى انها انتهت ، أو يجب أن تنتهى ، من حيث هي قضية لغوية ظلت مطروحة اكثر من نصف قرن ، تواجه الامة العربية بدعوى عجز لغتها القومية عن اداء العلوم الحديثة وقصورها عن نقل علوم العصر ، وتلقى عليها تبعة تخلفنا العلمى وفاقتنا الثقافية ...

ويبقى أن يلتبس الباحثون اسبابا اخرى لاستمرار عزل اللغة العربية عن معاهدنا العلمية العالية ، بعد أن خرجت دعوى عقم لغتنا وعجزها ، من مجال الخصومة والجدل ، وظهر بوضوح اننا في تبرير موقف جامعاتنا بهذا العقم في العربية، والتماسنا

* محاضرة للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء : استاذ كرسى اللغة العربية وآدابها بجامعة عين شمس » .